المحاضرة الثالثة

القسم: اللغة العربية/بغداد

اسم المادة: التعبير القرآني

المرحلة: الرابعة

مدرس المادة: أ.م.د: شاكر محمود الأعظميّ

الموضوع: فواصل الآي:

تمهيد:

من المعلوم أن الآيات القرآنية الكريمة تنتهي بفواصل منسجمة موسيقياً بعضها مع بعض مثل: (تعلمون، تؤمنون، تتقون) ومثل (خبيراً، كبيراً، عليماً، حكيماً) .

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم يعنى بهذا الانسجام عناية واضحة لما لذلك من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر في النفس. فقد ترى أنه مرة يقدم كلمة ومرة يؤخرها انسجاماً مع فواصل الآيات، فمثلاً يقول مرة: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٧-٤٨] بتقديم موسى على هارون، فيجعل لكمة (هارون) نهاية الفاصلة انسجاماً مع الفواصل السابقة واللاحقة، ومرة يقول: ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٧٠] بتقديم هارون وجعل (موسى) نهاية الفاصلة لأن الألف فيها هي التي تناسب فواصل الآي في سورة طه.

وقد ترى أنه يحذف شيئاً من الكلم لتنسجم مع فواصل الآي، إذ لو أبقى المحذوف لم ينسجم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ

﴿ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٣] إذ الأصل: (أو يضرونكم) مقابل: (ينفعونكم) ولكنه حذف المفعول به من (يضرونكم) ، إذ لو أبقاه لم تنسجم فاصلة الآية مع بقية الآيات.

وقد يزيد شيئاً في الكلمة للغرض نفسه وذلك نحو قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب: ٦٧] فقد مَدَّ فتحة (السبيل) لتنسجم الفاصلة مع فواصل الآية المتقدمة والمتأخرة.

وقد نرى أنه يبدل كلمة بكلمة أخرى مع أن الآيتين متشابهتان، ذلك لأن فواصل الآي في كل من الموطنين مختلفة، فيجعل في نهاية كل آية ما ينسجم موسيقياً مع أخواتها وذلك نحو قوله تعالى:﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[النحل: ١٨] فأنت ترى أن الآيتين متشابهتان إلا في خواتم الآي، فإن فاصلة آية إبراهيم وهو قوله: (كفار) منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها (الأنهار، النهار، كفار، الأصنام) .

وفاصلة آية النحل: (رحيم) منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها: (تشكرون، تهتدون، تذكّرون) .

وقد ترى أنه يضع كلمة في مكان ويضع غيرها في مكان آخر يبدو شبيهاً بالموضع الأول تجنباً للتكرار وذلك نحو قوله تعالى﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨] وقوله في مكان آخر من السورة نفسها: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦] . فأنت ترى أنه غاير بين الفاصلتين تجنباً للتكرار. ونحو ذلك مما يبدو فيه مراعاة الانسجام الموسيقي واضحاً.

غير أن الذي نريد أن نؤكده هنا أن القرآن الكريم راعى في كل ذلك أيضاً ما يقتضيه التعبير والمعنى، ولم يفعل ذلك للانسجام الموسيقي وحده، فإنه لو لم يكن الجانب الموسيقي مراعىً في ذلك لاقتضاه الكلام من جهة أخرى. فهو لم يختم آية الشعراء بكلمة (هرون) وآية طه بكلمة (موسى) مراعاة للانسجام الموسيقي وحده، بل اقتضاه الكلام من جهة

أخرى. فهو قد راعى الانسجام الموسيقي وما يقتضيه الكلام، فلم يَجُرْ موطن على آخر وهذا غاية الإعجاز ونهاية الحسن في الكلام.

وقد تظن أن في كلامنا هذا غلواً ومبالغة دفعنا إليهما إحساس ديني وتقديس نُكِنّه للقرآن الكريم وليس نابعاً من روح علمية ولا من نفس بريئة من العصبية والهوى. ولا نريد أن ندفع عن أنفسنا هذه التهمة أو نقرها وإنما ندع ذلك للبحث يدفعه أو يقره.

غير أننا نود أن نذكر هنا أن كثيراً من علماء السلف ذكروا ذلك، فقد قال الآلوسي رحمه الله ردّاً على القاضي البيضاوي قوله في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣] : "ولعله قدم (الرؤوف) وهو أبلغ محافظة على الفواصل". "وقول القاضي بَيَّضَ الله تعالى غُرّة أحواله: لعل تقديم (الرؤوف) مع أنه أبلغ محافظة على الفواصل ليس بشيء، لأن فواصل القرآن لا يلاحظ فيها الحرف الأخير كالسجع، فالمراعاة حاصلة على كل حل، ولأن [الرأفة] حيث وردت في القرآن قُدِّمَتْ ولو في غير الفواصل، كما في قوله تعالى:﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾[الحديد: ٢٧] في وسط الآية".

صحيح أن قسماً من الذين بحثوا في أسرار التعبير القرآني لم يوفقوا في اكتناه أسرار التأليف، بحيث تدرك أن تعليلاتهم متكلفة وتأويلاتهم بعيدة، وربما أدركت أيضاً أنه لو كان الكلام على غير هذه الصورة لأَوَّلُوه وعَلَّلوه تعليلاً آخر. ولكنْ هناك قسم آخر تمكن من أن يضع يده على أنفس الجواهر في التأليف وأن يستكنه أدق أسرار التعبير من غير تكلف ولا غموض.

المثال الأول:

قال تعالى:﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾[الشعراء: ٧٢-٧٣] .

موطن الشاهد في هذين النصين:

فقد ذكر مفعول النفع فقال تعالى:(أَوْ يَنفَعُونَكُمْ) ولم يذكر مفعول الضر فقال تعالى: (أَوْ يَضُرُّونَ).

توجيه الآية:

قد تظن أنه إنما فعل ذلك لفواصل الآي، ولا شك أنّه لو ذكر المفعول به لم تنسجم الفاصلة مع فواصل الآي، ولكن الحذف اقتضاه المعنى أيضاً.

فقد ذكر مفعول النفع فقال: (ينفعونكم) لأنهم يريدون النفع لأنفسهم. وأطلق الضر لسببين:

الأول: أن الإنسان لا يريد الضرر لنفسه وإنما يريده لعدوه.

والآخر: أن الإنسان يخشى من يستطيع أن يلحق به الضرر.

فأنت ترى أن النفع موطن تخصيص والضَرَّ موضع إطلاق، فخص النفع وأطلق الضر.

والمعنى أن هذه الآلهة لا تتمكن من الإضرار بعدوكم، كما أنها لا تستطيع أن تضركم فلماذا تعبدونها؟ ولو ذكر المفعول به فقال: (أو يضرونكم) لما أفاد هذين المعنيين:

فانظر كيف أن الإطلاق في الضر اقتضاه المعنى علاوة على الفاصلة؟